برنامج

"الحج عبادة وسلوك".

لفضيلة الشيخ

www.almosleh.com

((الحلقة الثانية)).

أما بعد.

فالحج فرضه الله تعالى على أهل الإيمان في العمر مرة واحدة، إلا أن هذا الفرض له من الأثر ما ليس لغيره من الأعمال، فإنه زكاء للنفوس، وصلاح للقلوب، ورفعة للدرجات، وحط للسيئات، فيه خير عظيم: «فمن حج فلم يرفث، ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه»(١).

وقد جاء قول النبيﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(٢).

وهذا الأجر العظيم، وذلك الجزاء الكبير، من حط السيئات، ومن رفعة الدرجات، ومن الفوز بالجنان، إنما هو فرع ما فيه من الثمار، فرع ما فيه من الخير المحقق للعبد، فرع ما فيه من الزكاء والصفاء، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً.

فالحج سلوك يدخل إلى كل تكوين الإنسان، فيسلك ويدخل قلبه بالتزكية والتطهير.

فالحج يتجرد فيه القلب من كل الرغبات، يخرج معظماً للهﷻ محباً له جل في علاه، يقصد وجهه لا يقصد سواه، ولذلك قال في بيان أثر الحج في وحدة القصد، وإفراد الله بالعبادة، قال:﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(٣).

فليس للمؤمن في غير الله قصد، بل قصده الله وحده، امتثالاً لأمره، حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، فذكر المقصد والغاية، ذكر الهدف والوجه قبل أن يذكر العمل، هو لله ليس لسواه.

---

(١) أخرجه البخاري(١٥٢١)، ومسلم(١٣٥٠).

(٢) أخرجه أحمد(٢/٢٤٦)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) سورة آل عمران:٩٧.

وفي هذا من تطهير النفس وتزكية السلوك وتقويم الإنسان ما يشهد خيره في كل أفعاله، فإذا زكا القلب صلح سائر الجسد، كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله»(١).

ولتكميل ذلك جاءت الشريعة بهداية الناس إلى أقوم العمل الذي يحقق التزكية، فبعد خلوص القلب، وصفاء القصد، جاء وجوب المتابعة لخير الخلق ﷺ، فقد قال الله تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾(٢).

فالأسوة والإمام في العمل والأفعال هو خير الأنام ﷺ.

وقد قال في بيان وجوب ذلك، وتأكيد اتباع هديه: «لتأخذوا عني مناسككم، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»(٣).

وهديه وسلوكه، وعمله وفعله ﷺ أكمل الهدي، إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ .

فلا هدي أكمل من هديه، ولا خير في سلوك طريق غيره ﷺ.

ولذلك كانت العبادة في الحج وفي سائر العبادات توقيفية، على ما كان عليه عمل خير البرية ﷺ.

يقول جابر رضي الله عنهما، في وصفه لحجة النبي ﷺ: "رأيت النبي ﷺ يرمي الجمار على راحلته يوم النحر يقول: «لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم(١٥٩٩).

(٢) سورة الأحزاب:٢١.

(٣) أخرجه مسلم (١٢٩٧).

(٤) تقدم تخريجه.

حرص بأبي وأمي ﷺ على أن يتلقى الناس منه اليسرى، والعمل لكمال عمله، وأنه العمل الذي يقرب العبادة إلى الله ﷻ.

فإذا اكتمل هذان الأمران، اكتمل صفاء القلوب بسلامة القصد، والإسلام لله رب العالمين، وكمال الإخلاص له.

وانضاف إلى هذا الكمال كمال آخر، وهو صدق المتابعة للنبي ﷺ، فلا يخرج عن هديه، ولا يحيد عن طريقه، بل يستمسك بغرزه ﷺ وما كان عليه عمله.

إن هذين الأمرين يثمران توازناً في حياة الإنسان، فتجده متوازناً في عمله، بين إصلاح دينه، وإصلاح دنياه، كما قال الله جل وعلا: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾(١).

هذا التوازن إنما هو ثمرة اتباع خير الأنام ﷺ، الذي قال الله تعالى في محكم كتابه في وصف ما أمر به عباده: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(٢).

الحج ينعكس على السلوك في إسقاط كل أوجه الفروق بين الناس في المظاهر والأشكال، الحجاج كلهم على صورة واحدة في أشكالهم ومناظرهم، في هيئاتهم وألبستهم، فكل على نحو واحد، إزار ورداء أبيضان دون سائر أوجه اللباس الذي يتميز به الناس بعضهم عن بعض.

إن هذه المساواة، وهذا الاشتراك في المظهر ينعكس على القلب خلوصاً من كل أسباب العلو على الخلق، فإن العلو على الخلق فساد الدنيا وفساد الآخرة، ولا يدرك الآخرة إلا من خلص من هذه السيئة، ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة الحج:٢٨.

(٢) سورة القصص:٧٧.

(٣) سورة القصص:٨٨.

إن النبيﷺ أكَّد هذا المعنى في حجته، ففي حديث أبي نضرة، قال ﷺ في أيام التشريق: «إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى»[١]، فهي التي يتفاضل بها الناس.

والحج مناخ، الحج مكان، الحج موسم، للتزود بخير زاد، لذا قال رب العباد:﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٢].

الحج يؤثر على السلوك في قرب العبد من ربه جل في علاه، فإنه يخرج من دنياه لله وحده لا شريك له، فيستلذ بترك كل شيء لله، وفي هذا من التربية ما فيه، من كمال الانخلاع من الدنيا رغبة فيما عند اللهﷻ، فيزكو السلوك وتطيب الأخلاق، ويصلح العمل، لأنه قد خرج عن كل ذلك لله، لا يرجو سواه سبحانه وبحمده.

فمنذ شروع الحاج في بداية الحج بلبس ملابس الإحرام، وهو يؤكد في نفسه صلته بالله وحده، ومرجعه إليه، وأن لا معبود سواه يعبد بحق، فله يصرف جميع العبادات، وإليه يتقرب بكل الطاعات.

إن الحج يحقق التعاون والتعارف والاجتماع، إنه يحقق قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣].

فهذا النسيج المختلف في ألسنته، المختلف في طبقات،المختلف في جهاته، المختلف في أصوله، ينسجم بلباس واحد، ويشترك في وحدة اللسان: "لبيك اللهم لبيك"، فالكل يجأر ويجهر بهذه الكلمات.

يشترك في وحدة القصد، فإنهم يقصدون بقاعاً واحدة، ومكاناً واحداً.

---

(١) أخرجه أحمد(٥/٤١١).

(٢) سورة البقرة:١٩٧.

(٣) سورة الحجرات:١٠.

يشترك في وحدة العمل والفعل، إنه يحقق وحدة الأمة، وائتلافها، واجتماعها، وتفاوتها، إنما يكون بمدى قربها من ربها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

هذا لا يتبين، التقوى لا يدركها الناس بأعينها، حتى ولو صلحت الأعمال.

التقوى إنما تدرك بما يكون في القلوب من عظيم المحبة لله ﷻ، وكبير الخوف منه والإجلال له سبحانه وبحمده.

الحج يغرس صفاتٍ حميدة فإنه يهذب الإنسان من كل الرذائل، ويحليه بكل الفضائل، لذلك قال ربنا:﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(٢).

وهذا فيه الندب إلى كل ما فيه فضيلة بفعلها، وإلى كل ما فيه رذيلة بتركها، طلباً لله ﷻ، ورغبة فيما عنده ﷻ.

الحج يربي النفوس على النظام، وعلى مراعاة الأحوال، فهم ينتقلون في أوقات محددة، ويترلون منازل محددة، ويسيرون مسيراً محدداً، كل ذلك طاعة لله ﷻ.

هذه بعض الملامح التي يظهر فيها أثر الحج على السلوك ظاهراً وباطناً، على الأخلاق في القلوب، وعلى الأخلاق في الأعمال،، فنسأل الله أن يبلغنا وإياكم الكمال.

---

(١) سورة الحجرات:١٣.

(٢) سورة البقرة:١٩٧.